مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد10 / العـدد: 01 (2024)، ص 153- 167

إطلالة سريعة على ديمغرافية القصور الصحراوية الجزائرية إبان القرن 13ه/19م من خلال رحلة الحاج بن الدين الأغواطي

A quick look at the demography of the Algerian Ksour desert during the 13th century AH / 19th AD through the journey of Hajj Ibn al-Din al-Aghouati

ابراهيم لحسن[1*]
[1] جامعة الشهيد حمه لخضر –الوادي (الجزائر)، lahcene-brahim@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2021/12/14 تاريخ النشر: 2024/06/30

ملخص: تحاول هذه الدراسة إلقاء نظرة سريعة ومختصرة عن الوضع الديمغرافي والعمراني الذي طبع المنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية خلال نهاية النصف الأول من القرن 13ه/ بداية الربع الثاني من القرن 19م، أي أثناء نهاية الفترة العثمانية وقُبيل الفترة الاستعمارية. وذلك من خلال ما أوردَه الحاج بن الدين الأغواطي في رحلته من معلومات ومعطيات تاريخية حول المنطقة.
كلمات مفتاحية: الأغواطي، المنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية ،ديمغرافية، القرن 13ه/19م.
Abstract: This study attempts to take a quick and brief look at the demographic and urban situation that characterized the Algerian desert Qusour region during the end of the first half of the 13th century AH / the beginning of the second quarter of the 19th century AD, that is, before the colonial period and the end of the Ottoman period, through the book The Journey of Hajj Ibn al-Din al-Aghouati.
Keywords: Al-Aghouati; the Algerian desert Ksour region; demography; 13th century AH/19 AD.

1. مقدمة:

من بين النقاط التي وقفنا عليها في إحدى دراساتنا السابقة (لحسن وغرايسة، 2021: 1338 – 1405) أن المنطقة القصورية الصحراوية لبلاد المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) خلال بداية القرن 10ه/16م أي خلال نهاية الفترة الوسيطة وبداية الفترة الحديثة "كانت منتعشة ومزدهرة ديمغرافيا" (لحسن وغرايسة، 2021: 1366) بالرغم من الوضع

* المؤلف المرسل

السياسي والأمني المتأزم والذي عصف -بشكل عام- بمعظم مجالات المغرب الأوسط (الجزائر) خلال تلك الفترة. فهل حافظت ديمغرافية قصور الجنوب الجزائري على وضعيتها الديمغرافية المزدهرة هذه بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمان، وبالضبط خلال فترة نهاية الفترة الحديثة وبداية الفترة المعاصرة، أي قُبيل العهد الاستعماري؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال استقراء إحدى المصادر الرّحلية المحلية الهامة، والتي تؤرخ لجوانب عِدّة من الجغرافيا البشرية لهذه المنطقة (المنطقة القصورية) خلال القرن 13هـ/19م وبالضبط قبل مَجيء المستعمر الفرنسي. ويأتي اختيارنا لهذا المصدر التاريخي الرَّحلي الجغرافي الهام لسببين اثنين، أولهما هو توفره على معلومات تاريخية متعددة قَلّما نجدها في مصنفات ومظان أخرى معاصرة، لا سيما على الصعيد الديمغرافي الديمغرافي الذي هو محور موضوع دراستنا -هذا بالرغم من الحجم الصغير لهذه الوثيقة التاريخية الهامة-. ثانيهما بسبب كون صاحب المصدر "من سكان الأغواط إحدى مدن الصحراء التي تحدث عنها" (سعد الله، 1998: 386)، فهو إذاً من البيئة والمنطقة الصحراوية. وهو ما يعطي معلوماته التاريخية الواردة في مُصنَّفه دِقّة ومِصداقية أكثر. بِغضّ النظر عن زيارته للمناطق التي تناولها في كتابه من عدمها. وتأسيساً على كل ما سبق، نطرح التساؤل الإشكالي الرئيسي التالي: **كيف كان الوضع الديمغرافي العام للقصور الصحراوية الجزائرية خلال القرن ال 13هـ/19م من خلال كتابات الحاج بن الدين الأغواطي في رحلته؟**

2. محاولة التعريف بالحاج بن الدين الأغواطي ورِحلته:

إن أهم ما يميز الرحلة الأغواطية أو رحلة الحاج بن الدين الأغواطي هو غُموضها. سواءً من ناحية مؤلّفها الذي لا نعرف عنه كثير معلومات أو من ناحية نص الرحلة بحد ذاته والذي بدوره يطرح الكثير من التساؤلات، أو حتى من ناحية دواعي تأليف هذه الرحلة في الأساس. وهو ما حمل البعض على الاعتقاد في "الواقع أن عمل ابن الدين هذا ما زال

غامضاً" (سعد الله، 1998: 386). وهو الأمر ذاته الذي أدى بنا إلى طرح كل هذه التساؤلات.

فبخصوص "مؤلف هذه الرحلة، فهو حسب مُترجمه: الحاج بن الدين الأغواطي، ويبدو أنه لم يكن معروفا على مستوى الجزائر في وقته" (الأغواطي، 2011: 80) وبأنه "من سكان الأغواط" (سعد الله، 1998: 386)، وذلك ما يمكن فهمه من خلال اسمه الذي يحمل لقب الأغواطي. وبأنه –أي مؤلف الرحلة- "كان قليل التعلم، كثير الاضطلاع" (الأغواطي، 2011: 80).

أما بالنسبة لدواعي تأليف الأغواطي لهذه الرحلة، فنجد أنه "قد كتبها بطلب من قنصل أمريكا عندئذ بالجزائر السيد وليام هودسون" (سعد الله، 1998: 386) مقابل مبلغ من المال دفعه هذا الأخير –أي القنصل الأمريكي- للحاج بن الدين الأغواطي مؤلّف هذه الرحلة (الأغواطي، 2011: 80).

بيد أن الشيء الأكثر غُموضاً في هذه الرحلة فهو نصُّها الذي يعتبر بعيداً تمام البُعد عن أساليب تدوين الرحلات والسفريات المحلية المعاصرة لتلك الفترة على غرار رحلات كلا من ابن حمادوش الجزائري أو رحلة التمقروتي أو العياشي أو غيرهم. وعلى العكس من هؤلاء تماما فإن المتأمل في نص رحلة الأغواطي يجد أن هناك "غياباً لحكاية السفر أو متعة السفر، فلا عجائبي ولا غرائبي ولا جمالي ولا اعتناء ببلاغة الرحلة وشعريتها. فالشخصية القَيِّمة على إنتاج القول هاهنا لا تستدعي سرودا، فتوصيف الرحلة غير قائم على صياغة سردية أو على ما له صلة بالمذكرات واليوميات وأجناس البوح بالسير الذاتية وأشكال التصوير وتقنياته. فما قدمه ابن الدين في نصوصه كان بمثابة توالٍ خطي لأوصاف توثيقية وتسجيل جغرافي لذلك يصعب إدراجها في دائرة الأدب"(قروي، 2021: 67) التّرحالي والجغرافي المحلي للمنطقة خلال هذه الفترة، وهو الأمر الذي يجعل من نص الرحلة "نوع[اً] من التقرير بين سفرية لأداء مهمة محددة ومرسومة الأهداف

مسبقاً"(قروي، 2021: 67)، وهذا ما يجعلنا نتساءل عَمَّا إن كان الأغواطي قد كتب نصه الأصلي باللغة العربية(أنظر التعليق رقم: 01) بهذه الطريقة والأسلوب المختلفَين تماماً عن طريقة وأسلوب عصره، أم أن النص كُتب في البداية بالأسلوب المحلي لتأليف مصنفات الرحلة أي أنه قد تعرض للتغيير فيما بعد ترجمة القنصل الأمريكي "وليام هودسون" له إلى اللغة الإنجليزية. خاصة إذا علمنا أن النص الحالي المتداول لهذه الرحلة باللغة العربية ما هو إلا ترجمة عن النص الإنجليزي الذي ترجمه القنصل الأمريكي إلى اللغة الإنجليزية عن أصله النص العربي الذي دونه به الأغواطي. هذا يعني أن مخطوط الرحلة بخطه العربي الأصلي لا زال يُعد في دائرة المفقودات.

وعلى الرغم من صِغر حجم هذه الرحلة الذي بلغ "أربع عشرة صفحة"(الأغواطي، 2011: 83) فقط عندما كان مخطوطا، إلا أنها تكتسي أهمية تاريخية كبيرة. لا من ناحية تاريخ تدوينها الذي كان على الأرجح في حوالي سنة 1829م/1244هـ حسب مترجمها إلى العربية(الأغواطي، 2011: 83) أي قُبيل فترة وجيزة من وقوع الاستعمار للفرنسي للجزائر. ولا من ناحية المعلومات التاريخية والجغرافية الهامة التي تضمنها نص هذه الرحلة والتي ربما لا نجدها في المؤلفات والمصادر الأخرى، وهذا بشهادة القنصل أمريكي نفسه: وليام هودسون الذي ذكر أن "الرحلة تحتوي على معلومات تهم جغرافية إقليمية بحيث تكون مفيدة للرحالة في المستقبل، إن معظم المدن والشعوب التي تحدث عنها ابن الدين غير معروفة معرفة جيدة، بل إن بعضها لم يُشر إليها أي رحالة أو جغرافي أوروبي من قبل حتى ليون الإفريقي (حسن الوزان) نفسه لم يذكرها"(الأغواطي، 2011: 85). ووفقا لأحد الدارسين(سعد الله، 2007: 247) فإنه ولأهمية هذا النص، سارع الفرنسيون إلى ترجمته وتداوله، فقد ترجم السيد دافيزاك d'Avezacهذه الرحلة من الإنجليزية إلى الفرنسية في باريس وقرأ الترجمة في جوان 1833 على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس، ثم نشَرَها بتعاليق هامة وتذييلات (لكنه لم يعلق على الجزء الخاص بالدَّرعية واكتفى بالترجمة فقط). كذلك نشرتها بالفرنسية قبل دافيزاك مجلة: أخبار الرحلات الجديدة.

من ذلك يتبين لنا أهمية وقيمة هذه الوثيقة التاريخية الهامة على مختلف الأصعدة والجوانب المتعددة للمنطقة خلال هذه الفترة أي قبيل الفترة الاستعمارية. خاصة على الصعيد الديمغرافي الذي قدم لنا حوله الأغواطي عديد المعلومات والمعطيات والمؤشرات الإحصائية والانطباعية الهامّة.

3. المناطق القصورية الصحراوية الجزائرية التي تضمنتها رحلة الأغواطي:

على الرغم من حجمها الصغير والمتواضع والذي سبق وأن أشرنا إليه، غطَّت الرحلة الأغواطية عديد المناطق في شمال أفريقيا بالإضافة إلى منطقة الدرعية بشبه الجزيرة العربية. و"أهم [هذه] المناطق التي ذكرها ابن الدين في رحلته: الأغواط، تاقدامت، عين ماضي، وجبل عمور، ومتليلي، ووادي ميزاب، والقليعة (المنيعة)، وورقلة، وتقرت، وتوات، وتيميمون، وعين صالح، وشنقيط، وغدامس، والدرعية، وقابس، وجزيرة جربة" (سعد الله، 1998: 386-387).

وبخصوص المناطق القصورية الصحراوية الجزائرية، فقد ذكرها الأغواطي في مصَنفه ضمن خمس (5) رحلات (الأغواطي، 2011: 85):

- ✓ رحلة من الأغواط إلى متليلي بوادي ميزاب: وتضمنت كلا من متليلي ووادي ميزاب.
- ✓ رحلة من متليلي إلى المنيعة: وتضمّت كلا من المنيعة وورقلة.
- ✓ رحلة من المنيعة إلى توات: وتضمّت : قرية أوالن، تيميمون، أولف، عين صالح والقورارة.
- ✓ رحلة من السودان إلى واحة توات: لم يذكر فيها أي منطقة واكتفى بالحديث ووصف تجارة القوافل بين المنطقتين (السودان وتوات).
- ✓ رحلة من ورقلة إلى غدامس: تحدث فيها عن قرية سيدي خويلد، قرية الطيبات، وادي سوف، قرية عميش وتقرت.

- ✓ هذا دون أن ننسى حديث ابن الدين عن بلدة الأغواط والمناطق القريبة منها والتي هي: تجمعوت، عين ماضي وجبل عمور.

4. الوضع الديمغرافي والعمراني للمنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية: بين الازدهار والتراجع النسبيَّيْن:

كما سبق وأن قلنا في مقدمة هذا البحث أن من بين النقاط التي وقفنا عليها في إحدى دراساتنا السابقة (لحسن وغرايسة، 2021: 1338 – 1405) أن المنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية في بداية المجيء العثماني للجزائر في بداية ق10هـ/16م "كانت منتعشة ومزدهرة ديمغرافيا" (لحسن وغرايسة، 2021: 1366) وذلك من خلال ما دونه حسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت بعد سنة 957هـ/1550م) عن المنطقة. فهل حافظت ديمغرافية قصور الجنوب الجزائري على ازدهارها العمراني والديمغرافي أثناء نهاية الحقبة العثمانية أي بعد حوالي ثلاثة (3) قرون؟

الجواب ببساطة هو نعم. وذلك ما يمكن فهمه من خلال ما ذكره الأغواطي عن هذه المناطق، ربما قد لا يرقى هذا الازدهار العمراني والديمغرافي الذي نتحدث عنه إلى مستوى نظيره الذي شهدته المنطقة قبل ثلاثة قرون أي خلال بداية الفترة العثمانية. لكن الشيء الواضح والذي لا يمكن نكرانه أو تجاوزه هو أن هناك ازدهار عمراني وديمغرافي حقا قد شهدته المنطقة وأثبته الأغواطي في رحلته عن طريق جملة من المعطيات والمؤشرات الانطباعية والرقمية التي تخص عمران وديمغرافية المنطقة. وهذا بغض النظر عن حجم هذا الازدهار كبيرا كان أم صغيرا. وسنحاول في الجدول التالي تبيان مدى الازدهار الديمغرافي والعمراني الذي لحق بهذه المنطقة من خلال ما دُون عند الأغواطي في رحلته:

الجدول 1: علامات الازدهار الديمغرافي والعمراني للمنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية :

المنطقة (القرى والقصور)	علامات الازدهار الديمغرافي والعمراني	الصفحة
الأغواط	"...الأغواط بلدة كبيرة، وهي محاطة بسور وحولها تحصينات، ولها أربعة أبواب وأربعة مساجد..."	87
	"...أما مسلحو الأغواط فحوالي الألف..."	89
عين ماضي	"...بينما عدد مسلحي عين ماضي حوالي ثلاثمئة رجل..."	89
جبل عمور	"جبل عالٍ جدا وفيه مائة عين جارية...وأرض هذا الجبل صالحة للزراعة...ويقدر طوله بحوالي مسافة يومين...ويُقدر عدد المسلحين في جبل عمور بحوالي ستة آلاف شخص..."	89
وادي ميزاب	"وفي هذا الوادي ستة بلدان وقرى، أكبرها غرداية وتضم هذه البلدة ألفين وأربعمئة مسكن بما في ذلك المساجد..."	90
ورقلة	"بلدة كبيرة جدا، ولها سور يحيط بها فيه عدة أبواب...ويدخل في نطاق ورقلة أيضا مكان يسمى الشط، كما أنه يمكن للعين أن ترى القرى الآتية من أعلى منارة في ورقلة وهي: الرويسات وعجاجب ومقوسة..."	92
تيميمون	"...بلدة كبيرة..."	93
أولف	"تعتبر أولف البلدة الرئيسية في واحة توات ولها نفوذ على جميع المنطقة..."	93
القورارة	"...تضم حوالي عشرين قرية..."	94
وادي سوف	"وفي وادي سوف عدد وافر من الدشور يمكن أن توفر عشرين ألف رجل وحصان ومهاري..."	96
تقرت	"تعتبر تقرت بلدة الثروة والرخاء...وهذه البلدة هي عاصمة المنطقة ولها نفوذ على أربع وعشرين قرية، وهي تحتوي على حوالي أربعمئة منزل...ومن أعالي منائر البلدة يمكن مشاهدة عدد من القرى وغابات النخيل في المناطق المجاورة، كالنزلة وتيبسبست وتماسين والمقارين والمغير وغيرها من الأربع والعشرين المشار إليها -كلها تُرى من منائر تقرت-...ويمكن تجنيد خمسة آلاف جندي..."	99- 101

المصدر: الأغواطي، 2011، 87 – 101.

كما هو ملاحظ في هذا الجدول، فقد تحدث الأغواطي في العديد من المرات عن وجود مدن صحراوية كبيرة عديدة وذلك ما يمكن فهمه من خلال مصطلحات مثل: "بلدة كبيرة

جداً" وذلك عند حديثه عن ورقلة إضافة إلى مصطلح: "بلدة كبيرة" عند حديثه عن مدينة الأغواط وتيميمون. فيما وُصفت تقرت بأنها "بلدة الثروة والرخاء" (أنظر الجدول أعلاه: الجدول 1)، وهو ما يعني بالضرورة ازدهار هذه المدينة اقتصاديا وحضاريا وبالتالي ازدهارها عمرانيا وديمغرافيا.

هذا ولم يكتف الأغواطي بهذه الجُمل والعبارات الانطباعية فقط، بل قدم لنا في العديد من المرات بعض المعطيات والإشارات الديمغرافية الرقمية المهمة عن الوضعية السكانية والديمغرافية لهذه المدن والقصور، سواءً فيما يتعلق بعدد البيوت والمنازل المُتوفر عليهم في كل مدينة أو قصر أو فيما يتعلق بعدد المقاتلين الذين يمكن توفيرهم على حسب كل منطقة. فعن الحالة الأولى ذكر بأن بلدة تقرت تحتوي على حوالي 400 منزل أي ما يعادل 4000 (أربعة لاف نسمة) إذا ما احتسبنا 10 (عشرة) أفراد لكل منزل أو ما يُعادل 2000 (ألفين) نسمة إذا ما احتسبنا 5 (خمسة) أفراد لكل منزل. وكذلك الحال بالنسبة لبلدة غرداية التي ذكر الأغواطي بأنها تضم 2400 (ألفان وأربعمئة) مَسكن. أما فيما يخص الحالة الثانية فقد ذكر ابن الدين بأن الأغواط بإمكانها أن توفر 1000 (ألف) مقاتل، جبل عمور 6000 (ستة آلاف) مقاتل، عين ماضي 300 (ثلاثمئة) مقاتل (أنظر الجدول أعلاه: الجدول 1). وكل هذه العبارات والمؤشرات الإحصائية التي أوردها الأغواطي سواءً الانطباعية منها أو الرقمية تدل بشكل واضح على ازدهار ديمغرافي وعمراني للمنطقة خلال هذه الفترة.

لكن وفي المقابل، فقد سجلنا في عديد الأحيان الأخرى بعضاً من علامات التراجع الديمغرافي والعمراني الذي لحق بالمنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية خلال فترة الأغواطي -أي في نهاية الفترة العثمانية- مقارنة بما كانت عليه خلال الفترة المتزامنة مع بداية الدخول العثماني للجزائر –أي خلال بداية الحقبة الحديثة-. فلنضرب مثالاً على ذلك بمدينة تقرت التي كانت تحتوي على "نحو ألفين وخمسمائة كانون"(الوزان، 1983: 135/2)عند حسن الوزان أي في بداية الفترة العثمانية أضحت تحتوي في نهايتها "على

حوالي أربعمائة منزل"(الأغواطي، 2011: 100) فقط. وكذلك الأمر بالنسبة لتيكورارين والتي يُسميها الأغواطي ب: قورارة، والتي كانت في بداية الفترة الحديثة عبارة عن "منطقة مأهولة...[و] يوجد [بها] ما يقرب من خمسين قصراً وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل"(الوزان، 1983: 133/2) نجدها بعد ثلاثة قرون عند الأغواطي بأنها "تضم حوالي عشرين قرية"(الأغواطي، 2011: 94) فقط.

هذا يعني حقا أن هناك تراجعاً ديمغرافيا وعمرانيا كبيراً قد شهدته المنطقة خلال نهاية الفترة العثمانية مقارنةً مع ما كانت عليه وضعية المنطقة الديمغرافية والعمرانية خلال بداية الفترة العثمانية، إذ يمكن الانتباه إلى ذلك بسهول من خلال المقارنة بين نصوص كلا من الأغواطي والوزان حول المنطقة. وهذا ما يعني أيضاً أن ازدهار المنطقة الديمغرافي والعمراني الذي رصدناه من خلال الأغواطي والذي سبق وأن أشرنا إليه، قد كان **ازدهاراً نسبياً فقط** ولم يرق لمستوى نظيره الذي شهدته المنطقة خلال بداية الفترة العثمانية. وهذه الوضعية الديمغرافية والعمرانية للمنطقة المتمثلة في **تزامن حالتي الازدهار والتراجع** تؤدي بنا مباشرة إلى ضرورة تفسير هذه الوضعية وذلك بمعرفة عوامل التراجع والازدهار.

5. قراءة في عوامل الازدهار والتراجع الديمغرافي والعمراني للمنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية خلال نهاية الحقبة العثمانية:

أولا: عوامل الازدهار:

في البداية –ومن وجهة نظرنا المتواضعة- فإن حدوث أي ازدهار حضاري لأي منطقة صحراوية من بلاد المغرب (شمال أفريقيا) خلال العصرين الوسيط والحديث مرهون بعاملين أساسيين لابد من توفرهما على مستوى هذه المنطقة، واللذان هما:

1) **توفر العُنصر المائي:** فهذا العنصر هو بمثابة عصب الحياة وشريانها في المجالات الصحراوية وهو ضروري لممارسة أي نشاط بشري على هذه المناطق خاصة عند الحديث عن النشاطين الفلاحي والرعوي.
2) **وقوع المراكز والتجمعات السكانية الصحراوية على شبكة المسالك والطرق التجارية الرابطة بين المنطقة الشمالية لبلاد المغرب وبين بلاد السودان:** وهذا العُنصر هو بمثابة شريان الحياة الثاني في الأهمية بعد الشريان الأول الذي هو توفر العُنصر المائي. وهذان العنصران لابد منهما من أجل تحقيق أي نهضة حضارية لهذه المنطقة خلال الحقبتين الوسيطة والحديثة.

وهو ما توفر فعلاً في مُعظم المناطق القصورية الصحراوية الجزائرية التي أوردها الأغواطي في رحلته، فعن العُنصر الأول الذي هو توفر الثروة المائية يخبرنا الأغواطي – بشكل أو بآخر- عن تشبُّع هذه المراكز الصحراوية بهذا المكسب المهم والأساسي داخل البيئة الصحراوية. إذ نجد أن بلدة الأغواط –مثلا- لها وادٍ يجري وسطها ويُقسمها إلى شطرين واسم هذا الواد هو: وادي امزي وهو مشهور في تلك الناحية(الأغواطي، 2011: 87). كما أن جبل عمور به "مائة عين جارية، وينبع منه نهر كبير يسمى نهر الخير وهو مشهور عند الجميع"(الأغواطي، 2011: 89). أيضاً نجد أن ورقلة "لها منابع مائية كثيرة" (الاغواطي، 2011: 92)، أما تقرت فهي "مُحاطة بأسوار ولها أبواب وهذه الأسوار مُحاطة بدورها بخندق يمكن مقارنته ببحر من الماء، وهذا يتصل بعيون ماءٍ تصُب جميعها فيه، وعلى هذا الخندق ثلاثة جسور"(الأغواطي، 2011: 100).

إن توفر هذه الثروة المائية بكميات وفيرة قد شجع فعلا ساكنة هذه المناطق على الاستقرار وممارسة النشاط الزراعي والفلاحي وبالتالي إنتاج عديد المحاصيل بمختلف أنواعها. إذ نجد -على سبيل المثال- أن قرية "توات الحنا" بنواحي بلدة أولف تُنتج الحناء والتمر بكميات وفيرة"(الأغواطي، 2011: 94)، كما و "تُنتج المنيعة [أيضاً] التمر والحلفا"(الأغواطي، 2011: 91) أما تقرت ف"تُنتج التمر والتين والعنب والرمان والتفاح

والمشماش والإجاص وغيرها من الفواكه"(الأغواطي، 2011: 99). وعلى الرغم من وقوع قرية الطيبات "وسط الرمال" (الأغواطي، 2011: 96) إلا أن "فيها كثير من آبار الماء، كما أن التمر وغيره من الثمار تُنتج فيها بكثرة(الأغواطي، 2011: 96).

إضافة إلى ذلك، فإن توفر هذه المناطق على العُنصر المائي لم يشجع سكانها على ممارسة الزراعة فحسب، بل أدى بهم ذلك إلى تربية الحيوانات ورعيها. فبسبب توفر بلدة تيميمون على "مياه غزيرة" (الأغواطي، 2011: 93) جعل ذلك أهلها يُقبلون على تربية مختلف الحيوانات ورعيها، إذ "توجد فيها الخيول بكثرة" (الأغواطي، 2011: 93) كما أن "أهلها يملكون قطعاناً كبيرة من الماشية" (الأغواطي، 2011: 93). نفس الأمر ينطبق على جبل عمور الذي يوجد فيه "مائة عين جارية وينبع منه نهر كبير ويسمى نهر الخير"(الأغواطي، 2011: 89) إضافة إلى أن "أرض هذا الجبل صالحة للزراعة" (الأغواطي، 2011: 89) كل ذلك جعل "سكان[ه] يُربون الإبل وبعضهم يُربي المعز والغنم"(الأغواطي، 2011: 89).

أما العنصر الثاني المتمثل في وقوع المدن والقصور الصحراوية على شبكة الطرق والمسالك التجارية الرابطة بين بلاد المغرب (شمال أفريقيا) وبلاد السودان، فقد كان هذا العُنصر أيضا فاعلا أساسيا في حدوث نهضة اقتصادية وحضارية كبيرة في مختلف القصور الصحراوية ومدن الواحات. "فقد استفادت هذه الأخيرة أيما استفادة من تموقعها الاستراتيجي على شبكة الطرق والمسالك التجارية وانعكس ذلك إيجاباً على ازدهارها الاقتصادي وعلى تَوسُّعها عمرانيا وديمغرافيا"(لحسن وغرايسة، 2021: 1362)، إذ حقق كل ذلك لهذه المراكز السكانية الصحراوية رواجاً تجارياً انعكس إيجابا على كل مستوياتها الحضارية، إذ لاحظنا ومن خلال الأغواطي أن هناك رواجا تجاريا كبيراً على مستوى هذه المدن والمناطق، لاسيما المعروفة منها والمشهورة والتي تتموقع على شبكة الطرق والمسالك التجارية حيث اعتُبرت كمحطات هامة للعبور من وإلى بلاد السودان على

غرار تقرت، وركلة وتيكورارين وغيرها. وسنحاول في الجدول الآتي تبيان مدى الرواج التجاري والاقتصادي الكبيريْن واللذين شهدتهما المنطقة القصورية الصحراوية بفعل ازدهار تجارتها مع بلاد السودان:

الجدول 1:يمثل مدى الرواج التجاري الذي شهدته المنطقة القصورية الصحراوية بِفِعل التجارة مع بلاد السودان:

المنطقة	دلالة الرواج التجاري	الصفحة
الأغواط	"...والتجارة فيها رائجة..."	88
غرداية	"...لها سوق كبير..."	90
تيميمون	"...لها سوق عظيم...يباع فيه كل العبيد وتراب الذهب بكميات كبيرة...وللطوارق تجارة معهم..."	93
أولف	"...وللسكان عدد كبير من العبيد..."	94
عين صالح	"وبعد توات تأتي عين صالح في الجنوب، ثم تأتي بلاد السودان في أقصى الجنوب حيث يتردد التجار لشراء العبيد وتراب الذهب"	94
واحة توات	"إن البضائع المستوردة من السودان هي العبيد وتراب الذهب وفي مقابل ذلك تصدر توات والقورارة الحرير والحديد والزجاج وأمثالها من السلع"	95
وادي سوف	"...ومعظم تجارة [أهل وادي سوف] مع غدامس، ففيها يبيعون العبيد، وبعض السكان جعلوا من هذه التجارة حرفة بحيث يذهبون إلى السودان مع التجار من غدامس وذلك بهدف جلب العبيد"	96
تقرت	"تعتبر تقرت بلدة الثروة والرخاء...وسوقها كبير جداً..."	100-99

الجدول 1: المصدر: الأغواطي، 2011، 88 – 100.

كما هو مبين في هذا الجدول، فقد شهدت الكثير من المدن القصورية الصحراوية رواجاً تجاريا كبيرا بفعل التجارة مع بلاد السودان. حيث عرفت هذه المدن أسواقا تجارية كبيرة اشتهرت بمختلف السلع والبضائع لا سيما: تراب الذهب والعبيد المجلوبون من السودان والذين سيتم إعادة بيعهم في مختلف مناطق بلاد المغرب الشمالية(شمال أفريقيا) وموانئها.

ومن خلال ما تم عرضه حول ازدهار الحركة الزراعية بفعل توفر عنصر الثروة المائية، وحول الازدهار الاقتصادي بفعل الرواج التجاري الذي استمدته مدن الواحات من

خلال من خلال تموقعها على شبكة الطرق والمسالك التجارية الرابطة بين بلاد المغرب وبلاد السودان، يمكننا القول أن الازدهار الديمغرافي والعمراني اللذين شهدته هذه المنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية ما كان له أن يتم لولا توفر هذين العنصرين: الثروة المائية والرواج التجاري المستمد من التموقع الاستراتيجي على شبكة تجارة القوافل الصحراوية.

لكن وفي العموم، وكما قلنا يبقى هذا الازدهار الديمغرافي والعمراني الناتج عن الازدهار التجاري والاقتصادي، **يبقى نسبيا** ولم يرق إلى المستوى الذي شهدته المنطقة في هذا الجانب خلال الفترة الوسيطة ولا حتى في بداية الفترة الحديثة. حيث شهدت المنطقة خلال نهاية هذه الحِقبة الأخيرة تراجعا حضاريا كبيرا مسَّ كل الأصعدة خاصة على الأصعدة التجارية والديمغرافية والعمرانية بفعل سبب رئيسي سنحاول أن نتطرق له في العنصر الموالي.

ثانيا: عوامل التراجع:

ربما قد تتعدد الأسباب والعوامل التي أدت إلى تراجع النسيج العمراني والديمغرافي وتقهقر الوضعية الحضارية بشكل عام للمنطقة القصورية الصحراوية في هذه الفترة (نهاية العصر الحديث). لكننا نعتقد أن هناك سببا واحدا كان له بالغ الأثر السلبي في عملية إحداث هذا التراجع، فكما اعتبرنا في البداية أن العامل التجاري والمتمثل في ازدهار التجارة مع بلاد السودان بفعل التموقع الاستراتيجي على شبكة المسالك والطرق التجارية قد كان أبرز دوافع الازدهار الحضاري للمنطقة وبالتالي ازدهار ديمغرافيتها، كان نفسه هذا العامل المتمثل في التراجع التجاري أهم العوامل التي أدت أيضا وفي الوقت نفسه إلى حدوث هذا التراجع.

ذلك أننا تعتقد أن اكتشاف الأوروبيين للطرق التجارية البحرية منذ القرن 9ه/15 قد أدى تدريجيا إلى إضعاف وتيرة ازدهار تجارة القوافل البرية الصحراوية، وبالتالي فإننا

نعتقد –أيضاَ- أن هذا التراجع الديمغرافي والعمراني للمنطقة القصورية الصحراوية الناتج عن تراجع رواجها ومكانتها التجارية قد بدأ مع نهاية الفترة الوسيطة مع ازدهار حركة الكشوفات الأوروبية لا سيما البرتغالية والإسبانية منها والتي توصلت الى اكتشاف طرق تجارية بحرية جديدة نحو أفريقيا وآسيا كبديل عن الطرق البرية التقليدية. حيث مكنتها هذه الطرق البحرية المُكتشفة من الوصول إلى معاقل الذهب السودانية (الأفريقية) عن طريق المحيط الأطلسي بكل سهولة ودون كبير عناء بدل الالتجاء إلى موانئ شمال أفريقيا التي كانت ترتبط ببلاد السودان عن طريق مدن الواحات.

ما نريد قوله هو أن تراجع تجارة القوافل الصحراوية خلال مختلف فترات العصر الحديث لا سيما في نهايته قد كان له بالغ الأثر السلبي في تراجع الوضع الحضاري للمنطقة القصورية الصحراوية. وهو ما يعني بالضرورة تراجع ديمغرافيتها وعمرانها. إذ يمكن الانتباه بسهولة إلى هذا التراجع من خلال المقارنة بين كُلًّا من نصوص حسن الوزان عن هذه المنطقة خلال بداية القرن 10هـ/16م ونصوص الأغواطي حول المنطقة أيضا خلال نهاية المرحلة العثمانية في القرن 13هـ/19م.

6. خاتمة:

في آخر هذا العرض المبسط يمكننا الخروج بما يلي:

<u>أولا:</u> يمكن اعتبار الرحلة الأغواطية من بين أهم الوثيقة التاريخية المحلية تؤرخ لجوانب عدة للجغرافية البشرية التي تخص بالمنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية قبيل الغزو الاستعماري وخلال نهاية الفترة العثمانية. ذلك أنها تحوي على معلومات تاريخية هامة لها علاقة بالجغرافيا، المجتمع والاقتصاد وغيرها. وبذلك يمكن اعتبارها أهم نص مصدري محلي يمكن الاستئناس به من قِبل المؤرخين المهتمين بالتأريخ للمجالات الصحراوية الجزائرية خلال نهاية العصر الحديث في ميادين الجغرافيا والمجتمع والاقتصاد. وبخصوص الجانبيْن الديمغرافي والعمراني، فقد احتوت هذه الوثيقة التاريخية على

معلومات مهمة وفريدة قلما نجدها في المصنفات والمظان المحلية الأخرى المعاصرة لتلك الفترة.

ثانيا: يُعتبر كلاً من الازدهار والتراجع النسبيَّيْن أهم ميزة طبعت الوضع العام لديمغرافية وعمران المنطقة القصورية الصحراوية الجزائرية خلال نهاية الفترة الحديثة وقبيل الفترة الاستعمارية. وذلك ما لمسناه من خلال ما جاء عند الأغواطي من المعطيات والمؤشرات الانطباعية والإحصائية التي رصدناها من خلال هذا المؤلَّف، حيث كان العامل التجاري أهم العناصر التي تحكمت في وضعية المنطقة الديمغرافية والعمرانية على الصعيديْن الإيجابي والسّلبي.

التعليق رقم: 01: ذكر الناشر الإنجليزي لهذه الرحلة أن المخطوط العربي الأصلي لهذه الرحلة مكتوب بالخط المغربي. أنظر: (الأغواطي، 2011: 86).

- **قائمة المراجع:**

- الأغواطي، الحاج بن الدين. ترجمة وتعليق: سعد الله، أبو القاسم. (2011). *رحلة الأغواطي الحاج بن الدين في شمال أفريقيا والسودان والدرعية* (طبعة خاصة). الجزائر: المعرفة الدولية للنشر والتوزيع.
- الوزان، حسن. ترجمة: حجي، محمد والأخضر، محمد(1983). *وصف إفريقيا*، ج2 (الطبعة الثانية). بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي.سعد الله، أبو القاسم. (2007). *أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر*، ج2 (طبعة خاصة). الجزائر: دار البصائر.
- سعد الله، أبو القاسم. (1998). *تاريخ الجزائر الثقافي*، ج2، (الطبعة الأولى). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- قروي، سميرة. (2021، 2 جانفي). "المادة الإثنوغرافية في المتن الرحلي بين الاستكشاف والتهديد – رحلة ابن الدين الأغواطي نموذجا-". *مجلة افاق للعلوم*، مج 06، ع1، ص ص 64 – 72.
- لحسن، ابراهيم وغرايسة، عمار. (2021، 27 جوان). "جوانب من ديمغرافية المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) خلال فترة نهاية العصور الوسطى وبداية الفترة الحديثة من خلال كتاب وصف إفريقيا من خلال كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان الفاسي المعروف بـ: ليون الإفريقي (ت بعد سنة 957ه/1550م)". *مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية*، مج35، ع1، ص ص 1338-1405.